العقل وقدراته

يمكن القـول: إن هنـاك دائرتين للعلوم والمعـارف، دائرة خاصة يصعب على العقل أن يستقل بإدراكها، ودائرة كبيرة جدًّا أحب أن أسميها (علوم الحياة) مثل الطب والزراعة والصناعة والفيزيـاء والكيمياء والجغرافيـا والإدارة... وما شابهها، فهذه العلوم يمكن للإنسان أن يستقل بمعرفتها، فإن أصاب فذاك وإن أخطأ فلا تثريب عليه.

أمـا الدائـرة الأولى فتتعلـق بمعرفة الله تعـالى وصفاته، واليـوم الآخـر وما يحصـل فيه والعبـادات وما يقبـل منها وما يرفض، والعقائـد، ومـا يحبـه الله تعـالى ومـا يكرهـه، هذه الساحـة لدينا فيها نصوص صحيحة، فهـل من العقل أن نهجر هـذه النصوص لنبحث بعقلنـا المجرد عن الله تعـالى وصفاته والعبادات وما يقبل... إلخ؟

البعض يريـد أن ينصب العقل (صنمًـا) ويعبده، بالأمس كان حجرًا واليوم يكون (عقلًا)، وقد يكون بقرة أو صنمًا من تمر أو من شكولاته، فإذا جاع أكله، وشرب علبة بيبسي ليهضمه..

لقـد ترك للعقل مساحة كبيرة، لكن عليـه أن يعرف حدوده، فهو لـوزن الأحجـار الصغيرة، فعليـه أن يلتزم حده، ولـدى العالم ملايين المشكلات علينا أن نحلها، ولا نخترع مشكلات نتطاحن عليها ونتصارع.

عشق العقل والعقلانية

د. طه عبدالرحمن - الأستاذ بجامعة محمد الخامس بالمغرب والمفكر المعروف - يسجل (تحفظًا) حول مصطلح (العقلانية)، فهو غير محدد مما يسبب نوعًا من التشويش، وذلك بتوارد ضروب من الشُبه، كما تطرق إليه صنوف من (الخلل والفساد)، وهو يتخير (طريقًا سليمًا) يكون موافقًا للممارسة الدينية الإسلامية.

ننطلق - في هذا العرض - التقويمي من واقع الاشتغال به، فمن يتأمل هذا الواقع يتبين فيه الحقائق الآتية[1]:

١- الدعوة إلى التزام (العقلانية) فكل من تولى النظر في وسائل النهوض بواقع العالم العربي والإسلامي لم يتردد أن ينصب (العقلانية) مثالاً لوسائل النهضة، وإمامًا للناس يُهتدى به...

٢- تعارض المبادئ العقدية للداعين للعقلانية، يتساوى فيه الإسلامي وغيره، وما بينهما، منتقيًا بعض المبادئ من الإسلام أو من مذاهب غير إسلامية، أو غير دينية، بحجة مسايرة التطور.

٣- امتداد الدعوة إلى العقلانية حيث تزايدت الألسنة في الشدة والانتشار، على مدى مدة استغرقت (قرنًا ونصف

(١) مجلة إسلامية المعرفة، العدد (٢٣) لعام ١٤٢١هـ ص (١٠٩).

قـرن) حيث امتدت مـن منتصف القـرن (١٩) حتى نهاية القـرن العشريـن. هـذه العناصر مـن شأنهـا أن تستوقف المفكـر المسلـم، وتحملـه على تمحيص هـذا المصطلح في مبادئـه ومناهجه وقيمه، كـي نتبين مدى وفائـه بالأهداف الإصلاحيـة والتغييريـة، التـي علقـت واستعملـت لأجلها، وحدود هذا الوفاء... ا.هـ.

هـذا كان أشبه بمقدمة للبحث، وبعـد ذلك يحاول تحديد المصطلح، ووضع (معايير) لذلك.

معايير تحديد العقلانية

حصر المعايير بثلاثة فقط هي[1]:

١- **معيـار الفاعليـة**: ومقتضـاه أن الإنسـان يتحقـق بواسطـة أفعالـه، ويظهر ذلك فيما يتطلبه ويتخـذه من المواقف التي تتحدد بمجموعها طبيعة سلوكه.

٢- **معيار القيمة**: ومقتضاه أن الإنسان لا يركن إلى ما هو كائن وما هو واقـع، بل يسعى دومًا أن يكون (موجهًا بقيم معينة) تملـي عليه ما يجب أن يكون مشدودًا لمفاهيم تعلو بهمته إلى الخروج عن حالة الحاضر، ابتغاء أحوال أفضل، ويدله على ذلك أنه ما أن يصل إلى مرتبة، حتى يطلب مرتبة فوقها.

(١) مجلة إسلامية المعرفة، العدد (٢٣) لعام ١٤٢١هـ ص (١٠٩).

٣- معيـار التكامليـة: ومقتضـاه أن الإنسان ليـس مجموعة من أجـزاء تقبل الانفصال بينهـا، وإيقاف التأثـير لبعضها في بعض. إنما الإنسـان ذات واحدة، تجتمع فيها مظاهر القوة مع مظاهر الضعف، والعرفان مع الوجدان، وقيم الجسم مع قيم الروح... ا.هـ.

ومعلـوم أن الفاعليـة تتعلق بالوسائل، وأمـا القيمة فتتعلق بالمقاصـد، وأما التكاملية فتتعلق بالنفع في المقاصد مع النجاعة في الوسائل.

بعـد هذا يطرح د. طه تساؤلًا: هل يوجد منهج علمي عقلي واحد يتفق عليه أهل العلوم كافة؟

المنهج العلمي العقلي والمقاصد

يجيـب د. طه عن التسـاؤل السابق[1]: بـأن الذي يظهر هو وجود أكثر من منهج، سواء في ذلك القواعد والمسلّمات أو الأنساق التي يبنى عليها، فهناك - مثلًا - الهندسة الإقليدية واللاإقليدية، وفي الفيزياء هناك نظرية (المكان المطلق ونظرية النسبية).

وبالنظـر لكثرة الاختـلاف فتصور وجـود (خطاب علمي واحـد) صـادر عـن العقـل الإنسـاني - بوصفه حقيقـة واحدة

(١) مجلة إسلامية المعرفة، العدد (٢٣) لعام ١٤٢١هـ ص (١٠٩).

مشتركة - هذا التصور لا يمكن وصفه (مقصدًا) يتوخاه (المنهج العقلي العلمي).. يضاف لذلك أن (مقاصد العلوم) إذا أتت تهدف لتحرير الإنسان وتوسيع إمكاناته وتيسير أموره وإسعاده، فإن (التقنية) ومناهجها بعيدة كل البعد عن ذلك، فلقد تكاثرت التقنيات، حتى صارت مشكلة من مشكلات العالم.. فالتقنية اليوم تستحوذ على الإنسان، بل تفقده إرادته، وقد تغيب عقله... الإنسان (خادم لا مخدوم)، وصارت الآلة مستقلة بنفسها، وتسير وفق منطقها، والحاسب الآلي أفضل دليل... إن التقنية اليوم تقوم على مبدأين:

أ - مبدأ لا عقلي، ومقتضاه: كل شيء (ممكن) حتى استنساخ البشر والحيوان، وإجراء كافة التجارب النافعة والضارة، على الإنسان والحيوان والنبات، بل كافة الأحياء..

ب- مبدأ غير أخلاقي، خلاصته: كل شيء ممكن يجب صنعه، وهكذا تتساقط كافة (الموانع الأخلاقية)، وعندها يسقط الإنسان في الظلمات، وهذا عكس مطلب تحرير أو تحرر الإنسان وإسعاده.

وأخيرًا.. فالمتابع (للمنهج العلمي) والنظريات لا يجدها تتكامل، بل تتقاطع، وقد تهدم واحدة ما تبنيه الأخرى، والمثل (صناعة الأسلحة) وأسلحة الدمار الشامل، وبعدها يجري البحث لإيجاد وسائل واقية..

ولعل الأغرب: أننا ما أن نجد جوابًا لسؤال، حتى نقع في جملة أسئلة لا نجد لها جوابًا، الأسئلة تتكاثر يوميًّا، والمنهج العلمي يعجز عن الإجابة.. والخلاصة: إن المنهج العلمي يطلب (النسبية والتفاضل) وليس الوحدة والتكامل، والنتيجة (استرقاق الإنسان أو تهميشه) بدلًا من تحريره.. والأدهى أنه ينشر (الفوضى) في العالم بدل النظام، العالم يتطلع نحو الاستقرار وقلة الحروب، لكن القرن العشرين صار الأكثر دموية مما سبقه من القرون... ا.هـ.

المطلوب الأول من التحضر والعلم والتقنية والعقلانية خدمة الإنسان وتسهيل أمور معاشه، وتسخير كل ما في الكون لخدمته، ولكن الذي حصل أن تحولت الأهداف فصار الإنسان هو (الخادم) وغيره هو المخدوم؛ لذا تعاظمت متاعب الإنسان وكثرت أمراضه (البدنية والنفسية) حتى صار الأغنياء هم الأكثر متاعب، وربما حصل هذا لأول مرة في تاريخ البشرية..

لذا راح د. طه يبحث في المنهج العقلي العلمي والوسائل، فحدد أربع صفات هي[1]:

١- ادعاء الموضوعية بالادعاء في (تطهير) الوسائل من كل أثر للمعاني والقيم الموجهة للحياة الإنسانية، كل ذلك

(١) مجلة إسلامية المعرفة، العدد (٢٣) لعام ١٤٢١هـ ص (١١٦).

باسم الموضوعية بالاحتكام للملاحظة والتجربة الحسية، فاستبعدت المعاني الدينية والقيم الأخلاقية بوصفها (مثبطة للعمل العلمي).

٢- الجمود على الظاهر: فالمنهج العلمي يحصر موضوعاته (بالظاهر) التي تقبل التجريب والتحليل فقط، دون طلب الحقائق. علمًا بأن المطلوب الجمع بين (ظواهر الأشياء وبواطنها).

٣- الجمود على المكان والزمان: وهذا (التحيز) يجعل من شيء غير ممتد تجعله يمتد، ومن شيء غير قابل للمقدار، تجعله قابلًا له.

إن المنهج العقلي قد يعمد إلى (أمر خاص) فيعممه، وهكذا حرمنا من أصول النجاعة المشروطة في العقلانية السليمة.

٤- اصطناع الوسائط المادية: العلم مستفاد بصورة مباشرة من اصطناع كثير من الوسائط، وهناك مبدأ: كلما يكون الشيء لطيفًا دقيقًا - في ظهوره - تتعدد وتتعقد (الوسائط إليه) وبالعكس، فكلما كانت الأشياء (كثيفة ومجسمة) قلت الوسائط... والنتيجة: إن إدراك الحقائق الروحية - غير المتناهية في الدقة واللطافة - يستلزم من الوسائط ما لا حصر له.. والمنهج العلمي حصر نفسه بـ (الوسائط

المادية)؛ لذا امتنع عليه إدراك ما يتأتى بوسائل أخرى، مثل المعاني الروحية، فضاعت النجاعة المطلوبة.

إن المتابع لوسائل المنهج العلمي العقلي يجد (وسائله) غير ناجعة؛ لأن (موضوعيته) تقف عند (الظواهر)، وتجمد على الزمان والمكان، ولا تقبل من الأسباب سوى المادي منها، وهذه خسارة قد عادت على الإنسان وحضارته بقسط كبير جدًّا...اهـ

خلاصة جيدة

د. طه يكتب خلاصة لبحثه الطويل القيم، فيقول[1]:

العقلانية بوجه عام عبارة عن (ماهية الفعل) الذي يطلب صاحبه تحصيل (مقاصد معينة بوسائل معينة)، والعقلانية (المجردة) بوجه خاص هي الفعل الذي يريد صاحبه تحصيل مقاصد (لا يتيقن) نفعها، ووفق طرق ووسائل لا يقين في نجاعتها، وهي (تُخل بالنفع في المقاصد)؛ لوقوعها في دائرة (النسبية والفوضى والاسترقاق) - كما تقدم - وهي تُخل بالنجاعة في الوسائل بسبب استبعادها (للمعاني الروحية) ووقوفها عند حدود الظاهر - لا تتعداه - مع الجمود زمانيًّا ومكانيًا، والأخذ بالوسائل والوسائط المادية لا غير.

---

(١) مجلة إسلامية المعرفة، العدد (٢٣) لعام ١٤٢١هـ ص (١٢٢).

أما العقلانية (المسددة) فهي صفة للعقل الذي يطلب صاحبه تحصيل (مقاصد نافعة) لكن بوسائل لا يقين في نجاعتها، وهي تقع بين أفقين (التظاهر والتقليد).

أما العقلانية (المؤيدة) فهي صفة للعقل الذي يطلب صاحبه تحصيل (مقاصد نافعة) عن طريق وسائل (ناجعة)، ولن يتم هذا الجمع بين نفع المقاصد - في ثباتها وشمولها - وبين نجاعة الوسائل في تبدلها وتغيرها وخصوصيتها، إلا بدوام (الارتباط بالله) والاجتهاد في بلوغ الغاية في ذلك، وحتى يستقيم لنا بناء (علم نظري أو طبيعي إسلامي أو تشييد فكر إسلامي) ما لم ننشء (منهجية عقلانية) تتصف بأوصاف تحقق لنا الجمع بين سائر العقليات - كما تقدم -.

والمطلوب أن ننهض بذلك (نحن) ولا نأمل أن يفعله غيرنا، كما لا نرجو أن ننقله عن سوانا، وبالله التوفيق[1]... ا.هـ.

عقل عربي إسلامي واحد أم عقليات؟

تبنى د. محمد الجابري في كتابه (نقد العقل العربي) أنه ليس هناك (عقل عربي واحد) بل عقول متضاربة متضادة، الواحد منها يعمل ضد الآخر... هذا الطرح تناوله (جورج

(١) البحث طويل وقد جاوز (١٥٠) صفحة، وأقترح دراسته بعناية، فهو مشروع لعقلانية جديدة مادية وغير مادية.

طرابيشي) بالرفض التام والقول بوجود (عقل واحد) له (مرجعية واحدة)، ويقول: إن دوائر العقل العربي (متحدة المركز) سواء أكانت بيانية أم برهانية أم عرفانية، فهذا معناه أن النظام (الأبستمي) - العلمي - لهذا العقل واحد، من ثم ما كان لهذا العقل أن يشهد أي قطيعة (ابستمولوجية) مهما تمايزت العبقريات والأماكن، فإذا أخذنا بصورة سمعية بدلًا من الصورة البصرية، فلنقل إن ثمة (سنفونية العقل العربي الإسلامي واحدة)، مهما تنوعت الآلات، وتفنن العازفون، وتمايز الأداء، إن القانون المعرفي الذي حكم (المسيرة التاريخية) لهذا العقل، هو قانون (التراكم الكمي)، الذي ما كان له قط أن يتأدى إلى (قول كيفي) أي إلى قطيعة (ابستمولوجية) - كما بتنا نقول - فدائرة (العقل العربي المسلم) مهما اتسعت ما كان لها أن تستقل عن نقطة (مركزها)، والارتباط ليس فك الارتباط هو (المبدأ الناظم لكل إحداثيات العقل العربي الإسلامي)، تلك القابلة للارتسام بدءًا من نقطة (مركزه) وبحكم هذه (المركزية)، فإن العقل العربي المسلم ما كان له أن (يقطع مع نفسه)، ففي حالته لا يمكن (للقطيعة) الابستمولوجية أن تعني شيئًا آخر سوى (الخروج عن مركزيته)، إما بإبدال (نقطة المركز نفسها) وإما بالاستغناء عن كل (نقطة مركز) والتحول من منطق (الدائرة) إلى (منطق السهم) على غرار ما

حدث للعقل (الغربي الحديث) بـدءًا من قطيعة عصر النهضة الأوروبي[1]...اهـ.

أعتقـد أن العقـل - منشـئ الثقافـة - يتوحـد إذا اتحدت (المرجعيـة) فـإن تعـددت المرجعية اختلـف العقـل، ولعل المثل القريـب العقـل الغربي فهو لـه مرجعيتان الأولى وثنيـة يونانية رومانيـة، والمرجعية المسيحية التي تلت المرجعية الأولى، وبسبب ذلك يكون الاختـلاف، العقل العربي مرجعيتـه إسلامية ولو لم يكن صاحبه (مسلمًا).

الدين والدولة في المسيحية والإسلام

مـن المعـروف أن الدولـة البيزنطيـة سابقـة في وجودهـا للمسيحية، بل مضت قرون والدولة تمنع المسيحية من الانتشار، حتى اعتنق الإمبراطور قسطنطين المسيحية متأثرًا بوالدته، وقد كان للدولـة تشريعاتها ونظمها، وقد (طليت) بالمسيحية، وظلت الثقافـة الإغريقية حية وإلى جانبها الثقافـة المسيحية المخالفة لها؛ لـذا سرعان ما نشب صراع حاد بين رجال العلم والكنيسة، فأقيمـت (محاكم التفتيش)، حيث عرض عليهـا (٣٥٠) ألف إنسـان للامتحـان والتعذيب، وقتل منهم أكـثر من (١٥٠) ألف حتى شاع: العالِمُ لا يكون متدينًا، والمتدين لا يكون عالِمًا.

(١) نقد (نقد العقل العربي) ص (٤٠٥) الطبعة الأولى ٢٠٠٢م.

وطُرِحَ حلٌّ بموجبه تم تقاسم (الوظائف)، فللكنيسة العبادة والنذور، وللدولة السياسة والاقتصاد والتعليم. وقد أطلق على هذا الحل (العلمانية)، وليس له أي علاقة بالعلم من قريب أو بعيد..

في الإسلام كان الدين سابقًا على الدولة، ولما قامت الدولة الإسلامية الأولى في المدينة كانت وفق مبادئ الإسلام، فحددت شروط الحاكم وواجباته بوضوح، كي لا يستحدث حقوقًا جديدة.

يلاحظ أن الثورات لم تكن - عندنا - ضد الدين، ولكن ضد من يخرج عليه أو يتجاهله، والعلمانية لم نعرفها ولم نحتج إليها، ولكن الغرب يريد فرضها علينا وفق طريقة: تريد أرنبًا خذ أرنبًا، تريد غزالًا خذ أرنبًا..

والذين (يتغزلون) بالعلمانية لا يفرقون بين مجتمعاتنا والغرب، وفقًا للقضية المنطقية المعروفة: الإنسان يتنفس والبقرة تتنفس، وبحذف المشترك تكون النتيجة (عظيمة جدًّا) الإنسان بقرة أو البقرة إنسان.. أخيرًا وحدة المرجع (توحد) وتعدد المراجع يفرق، هل من يجادل؟

من عجائب الحضارة

الدول الصناعية تصنع بضائع لا تحتاجها ولا تستعملها، والهدف التصدير وجني الأرباح، وليكن بعد ذلك ما يكون، فكل الذي فوق التراب تراب..

د. نعوم تشومسكي - الذي يوصف بكونه معارضًا مشاكسًا- يسلط الضوء على بعض صادرات الغرب مثل: المخدرات والسجاير والأفيون، والتسبيح بفضائل التجارة الحرة، والحديث اليومي عن قوانين السوق.

يذكر د. نعوم[1]: أن حرب (المخدرات) صاحبها الكثير من الصراخ والضجيج، وذلك عام ١٩٨٩م، وقد عقدت لجنة (ممثلي التجارة الأمريكية) اجتماعًا في واشنطن، من أجل اعتماد طلب من صانعي التبغ - السجاير - بأن تفرض أمريكا عقوبات على (تايلند) انتقامًا من جهود الأخيرة لحظرها استيراد (التبغ الأمريكي) والإعلان عنه، وقد (دكت) هذه الأفعال التي تقوم بها أمريكا (حناجر) مستهلكي التبغ والمدخنين في اليابان كذلك وكوريا الجنوبية وتايوان، إذ كلفت أرواح إنسانية كثيرة.

وقد أدلى (ايفيريت كوب) المدعي العام الأمريكي بشهادة أمام لجنة (ممثلي التجارة الأمريكية) فقال: حين نتوسل إلى الحكومات الأجنبية أن توقف تدفق (الكوكايين) فإنه من أكبر الرياء أن تصدر أمريكا (التبغ) وبعد سنوات سننظر إلى الوراء على تطبيق (سياسة التجارة الحرة) لنجدها فاضحة... ا.هـ.

(١) ما الذي يريده العم سام حقًّا، ترجمة د. موسى برهوم، طبعة ١٩٩٣ ص(١٠٠).

د. نعـوم يستذكر ويذكر العـالم بأمر أعجب من الاحتجاج علـى تايلند، وكل من يحارب التدخين، إنه يذكر أنه قبل أقل من قرنين أجبرت الحكومة البريطانية الصين على فتح حدودها لنوع من المخدرات النباتيـة (الأفيون) الذي يزرع ويصنع في (الهند البريطانيـة)، وتزامـن ذلك مع رفـع بريطانيا شعـار (فضائل التجارة الحرة) على حين تفرض بالقوة تعاطي المخدرات على الصين، وبشكل واسع الانتشار... ا.هـ.

ولـو كانـت بريطانيـا أو أمريـكا دولًا فقـيرة متخلفة مثل أفغانستان لهان الأمر، بل هناك معلومات تشير إلى أن المخابرات الأمريكيـة تتاجر بالمخدرات لتستعمل العائد في تمويل انقلابات عسكريـة هنا أو هنـاك، ومع ذلك وفوق ذلـك يتساءل أكثر من رئيس أمريكي: لماذا يكرهنا العالم ونحن طيبون؟

نعم أنتم طيبون ولكن.....

من الإنجازات الحضارية

مـا زلت مـع د. نعوم الـذي لا يهاب ولا يخـاف ولا يجامل، فهـو يتحدث أن بلاده قامت بإبادات جماعية - وأزيد: وما زالت مغرمة بهذه اللعبة الحضارية -.

يقول د. نعوم[1]: إن أول وزير دفاع لبلاده (الجنرال هنري نوكس) كان مسؤولاً عن (تهجير الهنود الحمر) ابتداءً من عام ١٧٨٤م نقل عنه قوله: إن ما نفعله بالسكان الأصليين، أسوأ مما فعله الفاتحون في بيرو المكسيك، وأن مؤرخي المستقبل سينظرون لأفعالنا هذه على أنها مما يمكن تسميتها بـ(الإبادة الجماعية).

أما جون كونيس أدافز فقد شعر أن الرب سيعاقب البلاد على إبادة وطرد السكان الأصليين... ا.هـ.

د. نعوم يذكر: أن الاستعمار البريطاني للهند جابه في البنغال مجاعة كبيرة، فكيف تصرفت بريطانيا العظمى؟ مشرفون بريطانيون أخذوا أراضي زراعية، ليحولوها لزراعة (الخشخاش) لصالح تجارة الأفيون، التي فرضوها على الصين بالقوة، والعهدة على د. نعوم، أهؤلاء هم قادة العالم للسلام؟

بين الاعتدال والابتذال

يشهد العالم (صراعات) تتغير يومًا بعد يوم، في الخمسينيات والستينيات من القرن العشرين كان الحديث عن التقدمية والتقدميين، وسب الرجعية أو (الركعية) صباح مساء، التسبيح بحمد الاشتراكية، حتى الكلاب صارت تنبح وتلهج

(١) ما الذي يريده العم سام حقًا، ترجمة د. موسى برهوم، طبعة ١٩٩٣ ص(١٠٠).

بذكر الاشتراكيـة الرشيدة وغير الرشيدة، بعدها الديمقراطية والتغنـي بذكرها العطـر، وهذه الأيـام الغزل كلـه في الاعتدال والتطرف، الحمائم والصقور، العولمة ومتطلباتها..

صالـح بشـير - تونسـي يقيـم في إيطاليـا - يكتـب عـن (التطرف والاعتـدال) والسلم والحرب، ويسجـل: أن إسرائيل استطاعـت أن تسقط خيار السلم والحرب معًا، وهي تجد دعمًا كبيرًا لمشاريعها، ومما سجله[1]:

١- كلنـا في الهوى سوا، ليس من حق أحد أن يزايد على أحد، لا دعاة النضال والجهاد، ولا من يروج للاعتدال والذين يلقون الدروس (الحداثية والعقلانية)..

٢- إسرائيـل استطاعت من (تيئيس العـرب) من سلوك طريق المسالمة، كما يأستهم من توخي (سبل الحرب)، حتى أحالت جيوشهم على التقاعد، والشكوى لله وحده.

٣- لقـد بينت إسرائيل للعرب بأنه لا جـدوى من الحرب؛ نظرًا لتفوقهـا المضمون عالميًا، ولا السلم والتفاوض؛ لأنها لا تريد حلًّا عادلًا.

٤- إسرائيـل حصنـت نفسهـا بامتلاكهـا الوسائل ضـد السلم والحرب معًا.

---

(١) صحيفة الحياة في ٢٠٠٢/٨/١٠م - ١٤٢٣/٦/١هـ.

٥- الحـال عندنا ليـس وجود أيديولوجيـات مختلفة، بل خلاف بـين يائسين من الحـرب توجهوا للسلم هربًـا، وبين يائسين من التسوية يهربون إلى الأمام..

٦- إن النضالية والجهاد صارت الأشبه (بنحر الذات) على أمل الخلاص من الاحتلال وتبعاته، وفشل المفاوضات المرثونية..

٧- ليـس ثمـة أيديولوجيـات متعددة، بـل انسـدادات متعمدة، وأبواب مغلقة موصدة.

٨- لا الحـروب جاءت بالحل، ولا المفاوضـات والتنازلات جاءت بشيء.

٩- إلى هنـا صار (الاعتـدال) أيديولوجية ومعيـارًا للفصل في أمورنا كلها، وبمفعول رجعي، يدعونا - دون ملل - للانعتاق.

١٠- أهـل الاعتدال يلومون (رفض التقسيم) مع علمهم بأنه لا مبرر لقرار قبول التقسيم.

١١- العيب ليس في التقسيم، بل في الفشل في تفعيل الرفض.

١٢- صارت الواقعية تعني الإذعان للأمر الواقع وأيديولوجية في غاية (الرثاثة).

١٣- الواقعية مطلوبة من الفلسطينيين وحدهم دون غيرهم.

١٤- لقـد مارس الفلسطينيون الاعتدال - وكانت أوسلو أكثر من اعتدال، فماذا قبضوا سوى السراب؟

١٥- لقد أفشل التعنت الإسرائيلي والإسناد الغربي الاعتدال، وسيقضي عليه كليًّا..

١٦- تملك إسرائيل أساطير خرافية توراتية وأحلامًا تلمدية، ونجد الغرب يتقبلها بشكل عام والرأي العام الأمريكي بشكل خاص، فأين صارت العلمانية والعقلانية؟

١٧- إسرائيل تتصدق على الفلسطينيين ببعض حقوقهم، فيصفق الغرب للكرم الحاتمي.

١٨- كل دولة في العالم مسؤولة عن أمنها، لكن إسرائيل وحدها تحمل جيرانها المسؤولية عن أمنها، فعليهم حماية إسرائيل والغرب يؤيدها في ذلك.

١٩- النزاعات بين الشعوب والدول يمارس فيها العنف، ويعد عادة مشروعًا أو من باب (شر لا بد منه)، إلا إذا كان ضد إسرائيل، فهو عدوان مرفوض.

٢٠- الواقعية لا إشكال فيها، ولكن أن تتحول إلى (ميوعة وتخاذل) فهذا هو المرفوض والممجوج. كذلك فإن العنف الأعمى مرفوض، ولكن عنف إسرائيل هو الأنكى والأشد.

٢١- أي جهة وطنية يمكن أن تكون (متطرفة في أهدافها) ولكنها معتدلة في وسائلها، هذه لا تثير العالم ضدها، إلا ما يحدث لإسرائيل، حتى رمي الحجر فإنه يقابل بالقتل.

٢٢- مـن يؤمن بالجهاد والنضال عليه أن يفهم ما يريده العالم، ولكن دون انغلاق ولا استسلام.

٢٣- مـا زال الحـق الفلسطينـي غريبًا في العـالم، وهو في أيدي أفشل محام يدافع عنه.

٢٤- تعـاني القضيـة الفلسطينية من تدخلات كثـيرة مختلفة، هـذا مـن أجـل أن يربح، وذلك يريـد أن يحسـن صورته، وثالث يزايد على أخيه، ورابع تحول للعدو أو لحليفه، خوفًا علـى مركزه أو منافعـه، البعض مستعد للقتـال حتى آخر فلسطيني.

٢٥- في الجانب الفلسطيني ناس كبروا وتعبوا، فتحولوا من جهاد الخنادق إلى جهاد الفنـادق، ومن مجاهدين إلى فلاسفة ومنظرين، ونصيحة مخلصة للكل: لا تحولوا الاعتدال إلى ابتـذال ولا الواقعية إلى استسـلام، ولا الجهاد إلى خطب بلاغيـة...، إن الثرثرة لا تطعـم جائعًا، فكيف تحرر وطنًا محتلًا؟ هل من مجيب؟

أزمة الإنسان والحضارة

الإنسـان بوصفـه كائنًـا حيًّـا يتعرض لأزمـات صحيـة واقتصادية واجتماعية ونفسية، قد يفلح في تجاوزها، وقد يفشل فتزمن، لتفرز أمراضًا وأزمات أخرى..

والحضارة بوصفها من منتوجات الإنسان، فهي مثله تتعرض لأزمات، قد تكون ضعيفة، وقد تكون قوية قاتلة، في البداية تفلح في التجاوز، لكنها عندما تشيخ وتصاب بتصلب الشرايين، فإن أصابتها أزمة قوية وفشلت في العلاج فقد تسقط وتذهب، ليحل مكانها حضارة (فتية)... البعض يتهرب من هذه النتيجة، ومن هؤلاء المؤرخ البريطاني (توينبي)، فهو لا يريد أن يسلم بأن حضارة اليوم تعاني أزمة، وأن مستقبلها (رهن) بتجاوزها..

أدغار موران المولود (١٩٢٠م) يعد ألمع فيلسوف فرنسي للحضارة الحديثة، له كتاب جيد عنوانه: (نحو سياسة حضارية)، قام المفكر (جورج طرابيشي) باستعراض محتويات الكتاب، وأنقله ملخصًا:

أدغار يطرح تساؤلًا: متى تدخل حضارة في طور (الأزمة)؟

ويرد قائلًا: عندما تتحول الحلول المقترحة للمشكلات إلى (مشكلات)، والرجل يعتقد بما يلي[1]:

١- إن الحضارة الغربية قد دخلت في طور (الأزمة)، بحيث صارت إنجازاتها مجرد (أعراض لأمراضها).

٢- حضارة اليوم قامت على (عقيدة إيمانية) تعتمد على

(١) صحيفة الحياة في ٢٠٠٢/٩/١م - ١٤٢٣/٦/٢٦هـ.

(حتمية التقدم) [1] في التاريخ مع الثقة بأن الغد سيكون أفضل من اليوم والأمس معًا.

٣- لقد اعتمدت الحضارة (آليات) لتأمين (التقدم الدائم)، وهي تصميم التقنية والتصنيع والاقتصاد النقدي والمذهب الفردي.

٤- هذه الآليات نفسها هي التي تهدد (بتآكل الحضارة) من داخلها، إذا ما ظلت (منفلتة من عقالها) بإيقاعها المتسارع الراهن، دونما ضابط (حضاري يضبطها).

٥- إذا كانت (التقنية) هي التي أتاحت للبشر (استرقاق الطاقات الطبيعية) والسيطرة عليها، فإن نفس التقنية اليوم (تتيح استرقاق البشر) أنفسهم، وفقًا (للمنطق الحتمي) الميكانيكي المسبق البرمجة للآلة الصناعية - وكل شيء له ثمن -!

٦- مما لا شك فيه: أن (التطور الصناعي) قد أمد البشر بمستويات حياة مرتفعة - خصوصًا - في الغرب، حيث وفر منتجات استهلاكية جماهيرية وفيرة ومنخفضة السعر، وبشكل مستمر.

٧- هذا الإنجاز - الذي أخذ شكل معجزة بالأمس - هو نفسه راح يهدد اليوم بالتقهقر في مجالين.

---

(١) هذه الحتمية طرحها هيغل في الدياكليتك، وعنه أخذتها الماركسية.

أ- خارجي على مستوى البيئة الكونية (بالتلوث والأمطار الحمضية، وارتفاع الحرارة، وثقب الأوزون، وانتشار الأمراض السرطانية).

ب- داخلي على مستوى (نوعية الحياة) اليومية للمجتمعات الغربية.

٨- على المستوى (الكوني) تبدو الأرض كأنها أدركت (منتهى حدودها)، فغاباتها تقطع وتستأصل، بحارها تلوث، طاقاتها الباطنية تستنزف، أما طبقة الأوزون فتترقق وتثقب، حرارة الأرض ترتفع وجليدها يذوب، أما مياهها الجوفية ففي تناقص.

أما على مستوى نوعية الحياة - في الغرب - فالمفارقة تظهر في أن (رغد العيش) صار يولد الكدر ونكد العيش.

٩- إن القدرة الشرائية للغرب قد تضاعفت (ثلاث) مرات خلال (٣٠-٤٠) سنة الأخيرة، لكن تضاعف بالمثل عدد (المنتحرين)، كما تضاعف نزلاء المصحات النفسية.

بالمثل تضاعف استعمال المسكنات، والمهدئة للأعصاب (٦) مرات، وتضاعفت النفقات الصحية ما بين (٥-١٠) مرات.

١٠- صارت حضارتنا مولدة للأمراض - وقد كانت أمراضنا (بدنية ونفسية)، فزادتها الحضارة كمًا ونوعًا: السرطانية تكثر باطراد، مع كل تطور صناعي، وانتشرت أمراض

(مزمنة)، مثل السكر والربو وارتفاع ضغط الدم، وأوجاع العمود الفقري، وتصلب الشرايين، كل هذا فضلًا عن التوترات النفسية والاكتئاب والأرق، والقادم أكبر وأعظم.

١١- أما مرض الحضارة بامتياز فهو (السمنة)، وليس صدفة أن يعاني الأمريكيون من فرط (السمنة)، وأن يعاني نصفهم من زيادة الوزن، فالحضارة الأمريكية هي الشكل الأكثر تطرفًا للحضارة الحديثة[1].

١٢- عندما يحصل أن تتسع (أزمة الحضارة) خصوصًا في دوائر (العقائد والمعرفة) هنا يحصل تقدم مذهل (للمعارف)، ولكن على حساب (نكوص) فيها، جراء غلبة (الفكر التجزيئي) وانتشار التخصص الدقيق، وهذا على حساب الفكر والرؤية (الكليين)، ويتزامن هذا (النكوص المعرفي) مع نكوص (عقائدي)..

١٣- في الوقت الذي تنتصر الديمقراطية انطلاقًا من (قاعدتها الغربية)، فإن الكثير من القيم (الديمقراطية) (تذبل)

---

(١) جاء في السنة.. خمس خصال أعوذ بالله أن تدركوهن: ما ظهرت الفاحشة في قوم حتى أعلنوا بها إلا ابتلوا بالطواعين والأوجاع التي لم تكن في أسلافهم الذين مضوا، ولا نقص قوم المكيال إلا ابتلوا بالسنين وشدة المؤونة وجور السلطان، ولا نقضوا العهد إلا سلط الله عليه عدوًا من غيرهم فأخذوا بعض ما في أيديهم، ولا منعوا زكاة أموالهم إلا منعوا القطر، وما لم تحكم أئمتهم بما أنزل الله في كتابه إلا جعل بأسهم بينهم... ا.هـ. (أخرجه ابن ماجة في سننه: كتاب الفتن، باب العقوبات ٢/١٣٣).

داخل المجتمعات الغربية نفسها، وفي أمريكا أولًا، قبل غيرها... مفارقة غريبة حقًا!.

١٤- يلاحظ أن المواطن (العادي) يخلي مكانه (للخبير والتقني) أما الإقبال على المشاركة في الانتخابات ففي تناقص، والحس المدني يتراجع، وتضعف (قيم التضامن) كثيرًا، ومثلها (المسؤولية المشتركة)..

من جهة أخرى تصعد (قيم القبلية الجديدة والطائفية)، وتشكل عصابات من الشباب الجانح أو مافيات في وسط (الجريمة المنظمة)، أو تقوم أصوليات أو هويات منغلقة في أوساط دينية وقومية متطرفة..

كما يحصل هروب من الحضارة للريف أو إلى المنتجعات السياحية، وانتشار أندية (العراة)، وانتشار المخدرات، وحتى (عبادة الشيطان).

١٥- المطلوب اليوم (سياسة حضارية) وليس أن ندير ظهرنا لإنجازات الحضارة كلها، لكن لا نتعامى عن أمراض الحضارة، المطلوب نقلة نوعية من الكم إلى نوعية الحياة... سياسة متعددة الأبعاد: اجتماعية واقتصادية وقومية، أوروبيًا وعالميًا.

١٦- على الصعيد الاقتصادي ينبغي أن يحل منطق (المدى البعيد) محل المنطق (قصير المدى) - الذي يعرف باقتصاد السوق.

١٧- يلاحظ أن الأرض - على المدى البعيد - مهددة بالاختناق الفيزيائي، الواقع تحت وطأة النمو الصناعي التقني (المنفلت من عقاله).. وكل (نمو) لا يضمن مستقبله، يصير نوعًا من (الانتحار)، كما يمكن أن يصير (حكمًا بالإعدام) على فرص مواصلة النمو بالنسبة للأجيال القادمة..

١٨- على المستوى الاجتماعي فإن (المذهب الفردي) يهدد البشرية كلها (بالاختناق النفسي)، ومن دون أن تدير (السياسة الحضارية) ظهرها لمكتسبات (هذا المذهب)، لا سيما ما كان منها على صعيد (حقوق الإنسان)، فالمطلوب إحياء روح التضامن والمسؤولية، والحس المدني والأخلاقي معًا.

١٩- على المستوى القومي - وبالنسبة لفرنسا ومن يشابهها من دول - فالمطلوب مواجهة (النزعات القومية اليمينية) والمعادية لكل مهاجر، وكذلك مواجهة النزعات الأصولية الانغلاقية المتصاعدة.

وكل ما تقدم يتطلب إحياء القيم الديمقراطية والجمهورية معًا.

٢٠- لقد كانت فرنسا - ومثل دول - تشكل بوتقة للانصهار القومي، فنصف شعبنا اليوم من المهاجرين.

٢١- المطلوب لأوروبا أن ترتفع فوق القومية والدولة القومية؛ لأن المشكلات صارت (كونية)؛ لذا لابد أن يكون القرار

مشـتركًا.. كما أن مفهوم (الوطـن) لم يعد مفهومًا قوميًّا، إذ الأرضـ اليوم وطـن الإنسان، وكارثـة (شرنوبل) ومثله جنـون البقر وأمثالها كالفيضانـات والأعاصير، تذكر أهل الأرض بأن حدودهم مشتركة ومفتوحة ومتداخلة.

وبنـاء على كل ما تقدم: فـإن السياسـة الحضارية إما أن تكون (كونية)، أو لن تكون ثمة سياسة أصلًا... ا.هـ.

استعراضـ جيـد لـكل نقـاط القـوة والضعـف، مـا يراد استبقاؤه وما يراد ترحيله..

في ثقافتنا ومن تراثنـا قاعدة تقول: (كل من حرك ساكنًا لزمه).. وحضارة اليوم تحرك كل يوم ساكنًا وتهيجه، ولو قدرت على نقل الجبال من مكانها لم تتأخر ساعة..

لقـد باهت وما تزال تباهي بأن حضارة اليوم فلقت الذرة، نعم فعلت، فانتشرت السرطانات في كل العالم، وحدث تسرب في مفاعل شرنوبل - وهو واحد من أربعة مفاعلات - فحبس العالم كله أنفاسه، وارتفعت سحابة وراحت تتنقل ما بين أوروبا وكندا، وكل مكان أمطرت فيه، فالماء ملوث والنبات ملوث، ووصل التلوث إلى حليب البقر الذي يرعى العشب الملوث..

ونتساءل: تـرى لو انفجرت هذه المفاعـلات أو غيرها، فما مصير الحضارة؟

يفاخر الإنسان الغربي بأن حضارته أطلقت من الحريات ما لم يفعله سواها، ومنها (حرية الجنس)، فضرب الإيدز العالم وراح يطحنه، يتحدثون عن حرية السوق - الدين الجديد - فضرب الاقتصاد العالمي في الصميم، وصارت أغنى الدول تتسول وتستدين، وتنادي: لله يا محسنين، إن أدغار موران رائد صادق وهو ينذر ويحذر، فهل من مستمع أم على القلوب أقفالها؟

خاتمي وأزمة كبرى

إذا راح أدغارموران يدق ناقوس الخطر بالنسبة للحضارة، ويطالب بوضع سياسة عامة، فالدكتور محمد خاتمي ينظر إلى الإنسان في دول العالم الثالث فيراه يتخبط في أزمة كبرى، إنه لا يملك مقدراته، السلطة تنازعه وتحرمه، والدول الكبرى تنازع السلطة المحلية، وتفرض عليها كل يوم جديدًا، لا تقدر عليه.

يقول د. محمد خاتمي[1]: يعاني الإنسان المعاصر من (أزمات) تاريخية كبرى، لكن أعظمها قد واجهته متمثلة في (غياب الاعتراف بحقه في امتلاك مقدراته) فعلى مر الزمان كان الإنسان (خاضعًا) لهيمنة السلطة، التي تخضع بدورها لنزواتها ومطامحها، واليوم ونحن نستقبل (الألفية الثالثة) يلزمنا أن نستوعب هذه الأزمة، كي نتمكن من معالجتها وبشكل مناسب..

(١) حوار الحضارات، مرجع سابق، ص (٩٣).

مـع ظهور الإسلام الـذي امتلك (رؤية إنسانيـة) كانت تعمل على تنميـة العقل، لاحت آمال تعد بنهاية عصر (التمييز والقهر)، فخاض الإنسـان خـلال -النصـف الأول للقـرن- من عمـر دولة الإسـلام، خاض تجربة امتلـك الإنسان فيها حـق تقرير مقدراته، وذلك في حياة الرسول الأكرم، حتى نهاية عصر الراشدين... ا.هـ.

وقد يعجب الإنسان من هذا الذي حصل قبل ألف وأربعمائة عام، ثم يعجـب مرات بأن ثلاثة من الخلفـاء الراشدين يجري اغتيالهـم، الواحـد بعـد الآخـر، وأن طاغيـة مثـل (الحجاج) يموت حتـف أنفه، كما يموت البعير، وهو مـن قال الخليفة عمر ابـن عبدالعزيز في حقـه: لو تخابث أهل الأرض جميعًا وقدمنا الحجاج لغلبناهم جميعًا.

عندما تنهار الدولة

حـين تكـون الدولـة مستبـدة وظالمـة وباطشـة، ثـم تنهار (بسرعـة) بعـد حكم طويل، تكـون ردة فعل المجتمـع (مخيفة)، حيث تنطلق (قوى) كأنها كانت في (دورة سبات)، لكنها تنطلق في سبـاق مع الزمن، بحيث يتعذر تصور الحدود التي ستقف عندها (جماهير هائجة) لا تعرف سوى السلب والنهب والتدمير..

د. عدنـان مصطفى - من رجال علـم الاجتماع في جامعة بغـداد - يقـول[1]: تكشف التحليلات لقـوة وعلاقات المكانة عن

(١) مجلة نداء الحرية، العدد (٩) ص (٣٢) السنة الثالثة (بغداد).

جوانب كثيرة معقدة كحالات تداخل بين (المرجعيات الثقافية) خصوصًا في السنوات التي أعقبت (الاحتلال) عام ٢٠٠٣م، وانهيار سلطة الدولة وتفكك منظومات (الضبط الرسمية) وغيرها، ولعل أهم ملامح ذلك:

١- كشفت مجريات السنوات الماضية عن كثير من مكامن (الضعف والخلل والقصور الذاتي) لدى مؤسسات المجتمع التقليدي والحداثي، الخدمي منها وغيره، كشفت الظروف عن (هلامية وضعف في بناء وأداء ورؤى وأهداف) تلك التشكيلات، مما انعكس سلبًا على برامجها وسياستها ومبادراتها وأنماط تفاعلها مع الجمهور، وعلى درجة استجابتها الفعلية لما تواجه من تحديات.

٢- لقد أظهرت الصراعات السياسية والاقتصادية والاجتماعية، التي شهدها العراق بعد ٢٠٠٣م عن (ضغط التحولات السريعة)، التي أعقبت الاحتلال وانهيار سلطة الدولة، وهكذا ظهرت مشكلات عديدة يعانيها العراق، على مختلف المستويات، وقد لعبت سلطة الاحتلال (دورًا مربكًا متسلطًا) في تحريك هذا الطرف أو ذاك، وكل هذا يتطلب (مراجعة كاملة شاملة) من كل الأطراف، بهدف تغيير تلك الأوضاع وبوسائل عقلانية ديمقراطية.

٣- إن جسامة الآثار المترتبة على (سياسة التدمير) التي أعقبت الاحتلال، قد حالت دون قدرة أي من التشكيلات على مواجهة هذه الآثار منفردة، والأمر يستدعي تطوير آليات للتوفيق بين الجهود الرسمية والشعبية، لتحقيق التكامل في إطار تعزيز قدرات المجتمع لحماية نسيج المجتمع وتعزيز قدراته.

٤- إذا سلمنا بالحقيقة القائلة: إن الإنسان هو نتاج بيئته، وهو حصيلة واقعه الاجتماعي، وهو الذي يصنع ذلك الواقع أصلاً، في ضوء ذلك تتحدد علاقته بالماضي والحاضر والمستقبل، لكن المشكلة الحقيقية في الواقع هو أننا (نسقط الماضي على الحاضر، ثم ننطلق للمستقبل)، وهذا يؤدي إلى إشكالات وجدل يسهم في عرقلة نهوض المجتمع.

٥- لقد كان من أهم أسباب تعثر تجربة التحولات الحديثة العهد في المجتمع العراقي خلال الأعوام الماضية، هو تحول السلطة إلى (طرف معزز للتناقضات السياسية) في مختلف الأوساط المجتمعية في محاولة لاحتواء (التحول والتغير)، الذي بدأ يخرج عن مجال الارتهان لتلك التناقضات، التي كانت تمارس ولعقود من الزمن في العراق؛ لذا فإن على السلطة أن تتجه نحو تعزيز فاعلية (المجتمع المدني)؛ لأنها أصلاً مسؤولة عن ذلك، وعن منحها شرعية الحكم... ا.هـ.

أستذكر أن التيار الكهربائي انقطع ليلة عن مدينة نيويورك، فانطلق الناس ينهبون ويحطمون واجهات المحلات، ويخربون، بحيث أصيب المجتمع الأمريكي بصدمة كبيرة.

وقد ارتكبت قوات الاحتلال في العراق جرائم عدة: أولها وأكبرها وأخطرها تفكيك الدولة وإلغاء الجيش والشرطة، واهتمت فقط بوزارة النفط، فلم تسمح لأحد أن يقترب منها، على حين أحرقت وزارات، ونهب المتحف، وأحرقت مكتبة الأوقاف، ونهبت معدات من المستشفيات والجامعات، وكل ذلك والجيش المحتل وهولاكو الثاني (بريمر) يسجل كل ذلك بمذكراته، كما يسجل أسماء من شجعوه على حل الجيش والشرطة.

من قواعدنا التراثية: أن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن. لكن مشكلة العراق أن السلطة انتقلت لمحتل لا يهمه ولا يحزنه ما يحصل في بلد مثل العراق، وقد فتح الحدود لكل مجرم وكل حاقد، ليدخل العراق ويفعل ما يشاء، حتى مخازن الأسلحة للجيش والشرطة فتحها وشجع على نهبها وبعد ذلك راح يسعى لجمعها ويدفع الأموال لذلك، وقد تكون الأموال من خزينة العراق..

من غرائب الحضارة

حضارة اليوم تموج بتناقشات صارخة، على رأسها (عشق الكلاب والقطط)، وكتابة (وصايا) بموجبها تحصل كلاب

وقطط على ملايين، واليوم تقدر جهات أوروبية أنه ينفق على الحيوانات الأليفة في الغرب أكثر من (خمس مليارات) من الدولارات على هذه الحيوانات، ترى لو خصص هذا المبلغ لفقراء العالم ألا يكفيهم؟

من هذه العجائب: أن الشرطة في مدريد توقف عائلة تسوق سيارة دون ربط الحزام، لكن الشرطة اكتشفت مخالفة أخرى، فقد وضعت العائلة أولادها في الصندوق الخلفي مع الطعام وبعض الأثاث، وفي الوقت ذاته أن (الست المصون) كانت تضع (كلبها) على (صدرها)، مما دفع الشرطة لكتابة مخالفة جديدة، مع الاستغراب لهذا السلوك[1]... ا.هـ.

وهناك نزاعات بين الرجال والنساء، تصل إلى طلب الطلاق؛ لأن الرجل لا يحب كلب الزوجة، أو العكس.

بعض المهاجرين للغرب الذين يحشرون مجموعات، ويجري اعتقالهم والتضييق عليهم كتب خطابًا لإدارة (التجمع) يقول فيه: بصفتي إنسان مهان معذب أطلب منحي ولو بعض حقوق الكلاب في الطعام الجيد والفسحة اليومية والحمام الأسبوعي!

الصراع والمراوحة

ينقل بعض العرب الذين زاروا الصين أنهم سمعوا من القيادة الصينية القول: إنهم ظلوا يتصارعون مدة جاوزت

(١) صحيفة الشرق الأوسط في ٢٠٠٩/٤/١٥م.

نصف قرن حول الطريقة المثلى لتوزيع (الثروة)، خلال هذه المدة سقط ناس ومات البعض، ثم اكتشفنا أن (الثروة) التي نتصارع على توزيعها لا وجود لها، وأن صراعنا كان عبثًا..

كتب فائز هشام البرازي كتابًا جعل عنوانه: (لا للديمقراطية: نعم للديمقراطية) ويعني أن الديمقراطية مرفوضة عند بعضنا، مقبولة عند غيرهم، لكننا كحال القيادة الصينية بالنسبة للثروة وتوزيعها.

يقول فائز[1]: مائة عام وأكثر من (المثاقفة)، ونحن ندور حول (أنفسنا) نرفع شعارات، ندخل جدلًا ومناظرات، كلها غير مثمر، ولم تؤدِ إلا إلى (ضياع بوصلتنا)، فمن الاستبداد والحرية، إلى الرأسمالية والاشتراكية، إلى القطرية والقومية، إلى التخلف والتحديث، إلى الدكتاتورية والديمقراطية، إلى العلمانية والدين.

عناوين كبيرة (أسقطنا) أكثرها كشعارات، وسنسقط، إن بقينا نراوح في (مربع الجدل والمناظرة والمثاقفة)، ولم نبدأ بالعمل، بالسير على طريق الإنجاز، ويحق لنا أن نتساءل: ماذا نريد؟ وما الهدف؟

---

(١) لا للديمقراطية: نعم للديمقراطية، الطبعة الأولى ٢٠٠٥م دمشق ص (٩٧).

أقـول جازمًـا: إن الجميع يريـد تحقيق الحريـة والتقدم، يريد الرفاه والازدهار، يريد العدل كهدف يسعى الكل لتحقيقه.

الهـدف واضـح ومحـدد ومشـروع، لكن الاختـلاف حول (الأسلـوب والنهـج) كـي يتحقـق الهـدف، وهنـا نصـل إلى الموضـوع المطـروح بقـوة، وعلـى كل المستويـات والتيـارات، إنه (الديمقراطية)، التي تكاد تتحول إلى هدف بينما هي وسيلة..

الديمقراطية بإيجابياتها وسلبياتها أمر يحمل (ثنائيته)، إنهـا الأسلـوب الأمثـل والأصلـح في إدارة المجتمعـات واتخـاذ القرارات....

الديمقراطيـة غير محصـورة في إعـادة بنـاء المؤسسات السياسيـة للنظام، وليست دساتير - على الورق - تمنح درجات مـن الحرية، ليسـت قوانين ونظم انتخابية، مـع أن هذه الآليات ضرورية في تحقيق أي نظام ديمقراطي، إلا أن ممارسة الأساليب الديمقراطيـة على أرض الواقع، بشكل سلوك، ومن قبل السلطة والمواطنين يشكل الأساس الذي يتجاوز كافة القرارات والهياكل (الفوقيـة).... كذلك فإن تأصيل القيم يعد الرافد الأساسي في بناء الوطن وتنمية المواطنية وتطويرها وباختصار:

١- ينبغـي تأصيـل ثقافـة الحـوار وتقبـل الآخر، علـى المستوى الوطني بأفكاره وأسلوبه وثقافته ورؤاه..

٢- تأصيل القيم الأخلاقية والدينية التي بإمكانها أن تصلح أحوال الأفراد، وتسعى لمحاربة الفساد بكل أشكاله وأنواعه، من فساد الأخلاق التي تشمل عمليات السرقة والنهب والاختلاس والرشوة والسطو على المال العام والخاص دون وجه حق، وأن تتم المحاسبة الفعلية والجرمية، وخاصة (المال العام)؛ لأنها تدمر الوطن والمجتمع.

٣- الإصلاح: وهو عملية تنمية مستديمة، تنمي الموارد البشرية والطبيعية والصناعية، إن الإصلاح من الأعمال الشاقة المستديمة، على أن يتزامن مع الإصلاح السياسي والاقتصادي والاجتماعي، دون استبعاد أو تفضيل لنوع على آخر..

٤- وما تقدم يدفعنا لطرح السؤال الآتي: لماذا تخضع الشعوب (للطغيان والخداع) بصوره وأشكاله المختلفة، سواء أكانت لأفراد أو دول، وسواء أكانت من الشعوب المتحضرة أو الفقيرة المتخلفة..؟

يميل الكاتب لما طرحه (الكواكبي) من كون (الاستبداد) مرض، وهو من حيث المسؤولية (موزعة) بين الحاكم والمحكوم، أما إزالته فتتم (تدريجيًّا) وبتكاتف الواعين.. فالحل في نظر الكواكبي (عقلاني)، يبتدئ بإصلاح الفكر، ثم يوحد الرأي العام.. أما المفكر الروسي (آتين لابوسيه) من رجال القرن

(١٦) فيرى: أن الشعوب تترك (القيود تكبلها)، بل تكبل نفسها بنفسها، أما خلاصها فمرهون بالكف عن (خدمة سيدها)، سواء أكان طاغية أم دولة أم نظامًا..

وللاستبداد (طبيعة) متى خضع له جيل، استسلمت له أجيال، كأنه وضع طبيعي، عندها يصبح (عادة) لا غرابة فيها، فالشعب الذي يولد في ظل الاستبداد، لم يعرف غيره... (إنه الإلف)!

هذا (التفسير) يقدم رؤية لما يرى من أن الأجيال العربية الجديدة تنصرف عن (العمل السياسي)، وعدم تحمل المسؤولية في المشاركة في العمل العام، يضاف لذلك وجود حالة من (الإحباط) بين النخب المثقفة، ومن (الطبقة المتوسطة) التي حملت من قبل مهمة (التحديث) وخاضت (معارك الاستقلال والحرية)... ا.هـ.

الملاحظ: أن الطبقة الوسطى، التي تحمل الأحزاب وتدعمها بقوة، قد سحقت سحقًا لا سابقة له، وفي أغلب البلاد العربية، وتحولت إلى طبقة فقيرة منهكة متعبة، لا حول لها ولا قوة..

أما المثقفون - وقد قدمت لهم الأمة الأموال والفرص لصعودهم - فقد تذكروا أنفسهم وعوائلهم، ونسوا أو تناسوا الأمة وما قدمت وما تعاني.. البعض - ممن كان في خدمة الاستبداد حتى الأمس - لا يزيد على الصراخ (قاطعوا قاطعوا، لا فائدة في المشاركة)!

هل هو التعب وشيوع الفساد، وتكالب المستبدين، أم انسداد الأفق، أم كل ذلك وزيادة؟

المثقف قد يكون (رائدًا) لأهله، وقد يكون (سمسارًا) لثقافة غير ثقافته، الأول يعيش بين أهله يحمل أفراحهم وأتراحهم، يتحسس معاناتهم، يؤلمه ويوجعه كل أذى يلحق بهم..

وهناك مثقف يعيش بجسمه بين أهله لكنه في غربة قاتلة، عقله وقلبه خارج بلده، حبه وعشقه خارج الحدود، مثل هذا ماذا يملك من عطاء ليقدمه؟ إنه يكتب قصائد هجاء - على طريقة الحطيئة - يسب ويشتم أمته ليل نهار، يشكك في عقيدة الأمة، ويشنع ويبرز كل خطأ في تاريخها، يدبج قصائد في هجو لغة الأمة، إنه كما قال أبو الطيب يومًا:

ووجودي بأرض نخلة ضر كوجود المسيح بين اليهود

لقد أصيبوا (بحول قاتل)، فلا يرون خيرًا ولا جمالًا ولا حقًّا في أمتهم، ومن كان هذا حاله فماذا ينتفع منه ومن ثقافته؟

القش يرسم صورة المثقف

لدي أرشيف متواضع أجمع فيه نصوصًا موثقة، ومنذ أكثر من أربعين عامًا، بعد أن كثر وتوسع رحت أفهرسه، ليتسنى العودة إليه والاغتراف منه، حاولت مع طلبتي أن أغريهم بجمع

أرشيف فلم أفلح، لقد وجدت - في الأرشيف - القش المثقف يتحدث عن (رفاق الطريق)، فيدين البعض، ويصمه بأشنع الأوصاف، فيقول[1]: يجد المثقف نفسه في قطيعة مع جذوره التراثية، ومع مضامين الأيديولوجية العملية، وذلك في سياق تكوينه كمثقف فرد، بهذا المعنى يصير نشوء المثقف ملازمًا (لخروجه وانفصاله) عن مجتمع المغلوبين، كي يقدم نفسه - بعد بلورة معارفه الجديدة - كتقني في خدمة (السلطة)..

إن هذه الحركة تضعه في قطيعة مع مجتمعه التقليدي، ومع كتل العصبيات من جهة، كما تضعه على طريق (تسلق معابر) السلطان الحديث، الذي هو بحاجة لأمثاله... ا.هـ.

هذه الصورة (يكملها) في مكان آخر، إذ يقول[2]: ... هكذا يتحرر المثقف الحديث من (عبء) تمثيل الحركة الجماهيرية وممانعتها للغالب، ويتجه ليصبح (ممثلًا للغالب)، وكذلك ليصبح (خواجا) السلطة أو حاجب السلطان، إنه يستند في وصفه (الوسيط الجديد) بين السلطة والشعب، إنه يستند إلى سلطة شكلية يستمدها من فوق، هي (سلطة العلم والثقافة العصرية)، التي تحاول أن ترث وتنافس سلطة (المثقف الشعبي)... ا.هـ.

---

(١) مجلة السفير في ١٩٨٧/٨/٢٩م.

(٢) في البدء كانت المانعة، ص (٩٤).

هـذا والقشـ من (الطينـة)، فـإن كان لا يعجـب البعض حديثه الحاد الصريح، فهذا المستشرق الفرنسي (جاك بيرك) يقـارب ما يراه القش ويزيد، فيقـول[1]: راح الغرب يفرض على العـالم الإسلامـي أنظمة تحت شعـار (العصرنـة والتحديث)، لكنهـا فشلت جميعًـا، لا فرق بين يساريـة عبدالناصر أو يمينية شـاه إيران، أما ما هو قائم - في العـالم الإسلامي - فهو عبارة عـن خيبة أمـل الجماهير الشعبيـة في أنظمتهـا، ذات الصبغة اليساريـة أو اليمينيـة أو اللبرالية؛ لذا عـادت الجماهير إلى ما تملكـه من نظـام أكثر ملائمـة لها، وأكـثر تجـذرًا في نفوسها، وأعني بـه (الإسلام) الـذي لم يزده توالي الأيـام والعصور إلا تألقًا ورسوخًا... ا.هـ.

وأذكر هنا - دون ملل - بمقولة الفيلسوف نيتشه: من يحتقر غيره فهو عنصري، لكن من يحتقر أمته وتاريخه فإنه ينتحر...

اللهـم أبعد عنـا النحر والانتحار، ومثقفـين يحملون صفة الماء (لا لون ولا طعم ولا رائحة).

بين ثقافة التقدم والتخلف

أعتقـد أن لـكل أمة وشعـب ثقافته الخاصة، وقـد تكون له حضارة أو لا تكون، لكن أن تعيش أمة بلا ثقافة، فهذا غير وارد.

(١) لا للديمقراطية/ نعم للديمقراطية ص (١٢٦).

الباحث فائز البرازي يتحدث عن ثقافة الشعوب المتقدمة والمتخلفة ومقومات كل منها، فيقول[1]: إن ظاهرة التخلف بمقوماتها الكثيرة من: استبداد وفقر وفساد وإرهاب وتبعية هي اليوم (ظاهرة عالمية) تشمل آسيا وأفريقيا، كما تشمل جزءًا كبيرًا من أمريكا الجنوبية، أي أنها تغطي (معظم أنحاء العالم) جغرافيًا، هذه الشعوب لا رابطة بينها من حيث العرق أو الدين أو الثقافة أو الجغرافيا، لكن يربطها رابط واحد هو (الجهل)، الذي يعد (مرتعًا) للتخلف بكل أشكاله. وأسارع للقول ليس المقصود بالجهل الأمية فقط، ولا تردي مستوى التعليم أو ضعف الثقافة؛ لأن ذلك موجود بمعدلات عالية في (أمريكا وكندا وأوروبا)، فمعدلات (الأمية) في أمريكا وكندا تتماثل مع معدلاتها في كثير من الدول والأمم المتخلفة.

ويلاحظ أن الشعوب الأمريكية والأوروبية واليابانية -مثلًا- (ثقافتها ضعيفة) خارج ثقافتها المحلية البحتة، ومع ذلك فإن هذه الشعوب تمكنت من بناء مجتمعات حضارية إنسانية راقية يتعذر إنكارها... إذًا فالجهل هنا يمكن تعريفه بأنه: (رفض المعرفة) كاصطلاح جلي، وهو يعني قناعة بامتلاك الحقيقة، غير القابلة للنقاش، وهنا يأتي (رفض الآخر) بما يحمل من معرفة وثقافة وحضارة، فيؤدي ذلك لتدمير ملكات التفكير..

(١) لا للديمقراطية/ نعم للديمقراطية ص (١٢٦).

هـذا الجهـل برغـم كل ما يبـذل في مجـالات التعليـم بكل مراحلـه، ومحـو الأمية فهو بـاق ومسيطر على مستـوى العلاقات الإنسانية والاجتماعية والأسرية وبين الحكومات والشعوب... ا.هـ.

تفريـق جيد بين ثقافتين، لشعوب متقدمة تجهل الجغرافيا والتاريخ والأدب، وثقافة متخلفة وإن عرفت الكثير من الجغرافيا والتاريـخ... بل قد يوجـد لدى شعب متقدم خرافـات وأساطير لكنها لا تؤثر على العلوم والصناعة وغيرها...

قبـل بضع سنوات وصلت للعاصمة الماليزية وقضيت أيامًا، وذات يـوم دعيت لتنـاول الغـداء في بيت صديـق، ولفت نظري وجـود مجسم لإنسـان في الحديقة وأمامه فواكـه كثيرة وبخور، سألت الصديق: ما هذا؟

قـال: هـذه دار زميل بالجامعـة يعد شخصيـة (فذة) في الحاسـوب وعلومه وبرامجـه، وما رأيته مجسـم لمعبوده، يتقدم إليه صبـاح كل يوم بخشوع تام، يصلي لـه ويلتمس منه البركة، وقـد خصص لـه ميزانية شهرية لشراء الفواكـه الجيدة وأنواع البخور الغالية، وهذا منتشر بين المثقفين وأساتذة الجامعة.

ومن أمريكا الشمالية، رجـل كبير في الخارجية الأمريكية يحاضـر في السياسـة والإستراتيجيـة الأمريكيـة في إحـدى الجامعـات، يذكـر الحرب العالميـة الثالثة أكثر مـن مرة فيقف

طالب ويقول بانفعال شديد: الحرب العالمية الثالثة وتكرر ذلك، فهل توجد حرب عالمية أولى وثانية؟

إن معلومات الشعب الأمريكي عن الجغرافيا والتاريخ مخيفة، لكن هذا الجهل لا يؤثر في الصناعة ولا الزراعة ولا في العلوم...

الجديد في العالم أن وسائل الإعلام لدى المتقدمين بدأت توجد قناعات، وتمسح أخرى، وهي غير محايدة ولا صادقة في كثير من الأحيان..

والسؤال الكبير: هل يمكن أن يجتمع الصيف والشتاء في بيت واحد؟ وهل يمكن أن تجتمع ثقافة متقدمة مع بعض أساطير وخرافات؟ وهل يمكن لدول متخلفة أن تعلم شعبها الكثير من الجغرافيا والتاريخ، وأن يكون ذلك على حساب ثقافتها وتاريخها؟

أكاد أجزم أن بعض الشباب العربي يعرف عن (مردونا) وفرق كرة القدم أكثر مما يعرف عن ثقافة العرب في الأندلس، أو الدولة العباسية، أو البحتري وأبي الطيب.

في أعماق الثقافة

أتيحت لي فرصة لزيارة القارة الأفريقية، تبدأ الرحلة من السودان وكينيا حتى آخر بقعة في جنوب أفريقيا (رأس الرجاء

الصالح) عند التقاء المحيط الهندي مع المحيط الأطلسي... كما زرت غرب أفريقيا، من دول الكنغو إلى روديسا (زنبابوي)... خالطت شعوبًا وتحدث إليَّ أناس، وكانت أكبر قضية هزت أعماق نفسي حين اكتشفت أن (الثقافة) تصنع ولاءً طوعيًا وقناعة، يصعب أن تتبدل أو تذبل أو تموت..

لقد زرت جزرًا في المحيط الهندي مثل ريونين وموريشيوس وما حولها من جزر صغيرة، لا تظهر على خارطات العالم لصغرها، ومع ذلك كان أجدادنا يزورونها وهم يدورون حول أفريقيا، قبل شق قناة السويس..

ملخص التجربة: شاب مسلم تعلم في البلاد العربية فاستعرب، بل صار أكثر (عروبة) من العرب، ثقافته عربية، مكتبته عربية، أسماء أولاده عربية، اهتماماته السياسية والاجتماعية عربية، يصوم رمضان مع العرب، ويفطر إذا أفطروا، يعد زيارته لبلد عربي من أولى رغائبه وأهمها.

يقابل هذه المجموعة (المستعربة) أولئك الذين ولدوا في الهند أو الباكستان، وتعلموا وتثقفوا فيها، فهم مسلمون عقيدة، هنود أو باكستانيون ثقافة، الأسماء محلية والإمام والمؤذن ومعلم المدرسة والعروس من هناك، الكتب والمكتبة كذلك، يصومون مع الهند ويفطرون معها..

هكـذا تصنـع الثقافـة (الـولاء)، وأتسـاءل دون ملل: هل يستوعب قومي ذلك؟

في زيـارة لماليزيا وجـدت شعارًا يقول: انظـر إلى الشرق، في البـلاد العربيـة الشعـار: انظـر للغرب، ولا تصـرف نظرك عنه، حتـى أصبنا (بالصعر) ذلك المرضـ يضرب الإبل فتميل أعناقها، نعشق الغرب وهو يعشق عدونا، فما الحل؟ ما حالك إن عشقت امرأة تحتقرك وتعشق غيرك؟

الثقافة كما أعشقها

حديـث الإنسان عـن نفسه سمج ثقيل، لا يقبـل عليه إنسان سوي، إنه من اختصاص الحاكم الفاشل ومجنون العظمة، فاللهم أبعدنا عنهم جميعًا. بعد هذه المقدمة (الغريبة) أريد أن أقول: أنا امتهنـت التدريس، ابتـدأت قبل أكثر من نصف قـرن في التعليم المتوسـط والثانوي وانتهيت بالجامعات، أدرس الثقافة الإسلامية والفقـه وتفسـير التاريخ، وأشـرف على عدة رسائـل في الثقافة، واشتركت في مناقشـة العديد من رسائـل الماجستير والدكتوراه، ثلاثـة أرباعها في دائرة (الثقافـة)، وأمارس الكتابة والتأليف في الثقافة والحضارة... هـذه المقدمة لا تخلو من سماجة نعم؛ لأني أريد تبرير اشتغالي بالثقافة، فقناعتي تزداد بأن الثقافة للإنسان هي التي (تبرمج عقله)، وتصنع له (الولاء وتحسنه)، وقد تجعل

منـه إرهابيًّا يغتال والده، أو تجعل منـه متخلفًا، يستحسن وضعه في ركن في متحف (قديم)، كما قد تجعل منه ناشطًا مكافحًا وقد تجعـل منـه رائدًا - والرائـد لا يكذب أهله - كمـا ورد على لسان رسولنـا ﷺ... وقد تجعل منـه ثقافته (خواجـا) وسمسارًا لغير ثقافته، بل وكيلًا لمن يعاديه ويعادي أمته، لكل ما تقدم فأنا عاشق للثقافة، موقن بجدواها، فهل ألام على ذلك؟

طفل يتفلسف

اصطحب خال ابن أختـه -في السنوات الأولى الابتدائية- وفي الطريـق حـان وقت الصـلاة، فتوجـه الخال وابـن الأخت للمسجـد، وبعد انتهـاء الفريضة أعلن عن وجـود جنازة لطفل، وبعـد الصـلاة على الجنازة، قـال الطفل لخاله: هـذه الصلاة ليس فيها ركوع ولا سجود، رد الخال: هكذا الصلاة على الميت، لا ركـوع ولا سجـود فيها، قـال الصبي: لماذا مات هـذا الطفل؟ أجـاب الخال: لا أعرف، علق الصبي: لقد كان يتعب أمه فدعت عليه فمات... إنها الثقافة، تصنع القناعة والولاء...

إنتاج المعرفة وغيرها

يشهـد العـالم ثـورة في المعلومـات لا مثيـل لهـا، والفضل للإنسـان صانـع الحاسـوب (الكمبيوتر)، هذه الثـورة تزيد في

قـدرات الإنســان (الفكريــة)، بحيث يصــير الإنســان (منتجًا للمعرفة)، وقد كان حتى الأمــس ينتج (البضاعة)، وهذا يجعل الإنســان الأساس في الاقتصاد، من هنا مسؤولية أن يقوم الفرد بتزويـد نفسه بالمعرفـة الجديدة، والكثير مــن الشركات راحت تساهــم بذلك، فتعقـد دورات وتبتعث أشخاصًــا للحصول على معلومــات متقدمــة، ونشــأت طبقة جديــدة من العمــال (عمال معرفيــين)، لتحقيق النجاح في بيئات تتطلــب نوعًا من الإبداع، مع طرح أفكار وابتــكارات قابلة للتسويق والتشويق، هذه المعرفة تدفع باتجــاه (تنميــة المــوارد الاقتصادية)، لكن هــذه التنمية تتطلــب مستويات جيدة؛ لذا تجب محاربــة الأمية (الأبجدية)، وكذلــك الأمية (المعرفيــة)، وعلى مؤسسات التعليــم أن تنهض بذلــك، وكذلــك مؤسســات البحــوث والبحــث العلمــي... ولعل اليابــان تشــكل المثل الأرقــى المتقدم، واليابان كمــا هو معروف: كثافــة سكانية عالية، سكان طوكيو بقدر ســكان العراق، الموارد شحيحــة، والأرضــ جبلية، لكــن بفضل الإنســان وقدراته وحبه للعمــل وقدراته الإبداعية، أما قدراته الثقافية مع كونه يستخدم أصعب لغة في العالم، ومع ذلك تنشط حركة الترجمة، فلا يصدر كتاب ولا بحث جيد إلا ترجم خلال أسابيع وطرح للتداول.

اليابــان التي خرجــت مهزومة من الحــرب العالمية الثانية تتفــوق اليــوم على من ألحق بهــا الهزيمة، وقــد كفرت بالحرب

كمـا كفرت بالجيوش الجرارة، وبالاستعمار وما يجره على البلد الذي يعشقه..

ومن اليابان إلى أمريكا والسباق للوصول للقمر..

صراع أمريكا للوصول للقمر

فوجئـت أمريكا أكبر مفاجأة حين أرسـل الروس صاروخًا للفضـاء الخارجي قبل أكثر من نصف قـرن، لقد كان سبقًا هز أمريـكا كلها، فراحت تعيد النظر في مناهج الدراسة من رياض الأطفـال إلى الدراسـات العليـا، ولم تكتـف بذلـك حتى فتحت حدودهـا لـكل صاحب قابلية علمية في العـالم، ولم يهدأ لها بال حتى نجحت في الوصول إلى القمر..

دول العـالم تبحـث وتنقب حتى بين الصخـور، وفي أعماق البحار، عن ثروة، وفي العـالم الثالث حكام فاشلون همهم الأول كشف المؤامرات وكفى.

ذات يـوم كان الأستـاذ إبراهيـم المصـري - أمـين عـام الجماعـة الإسلاميـة بلبنـان، في تركيا يحاول إجـراء حوار مع وزير العدل التركي، وإذا بشخص يدخل ومعه ملف عاجل يسلمه للوزير، ملخص القضية مجموعة تتآمر على (أمن الدولة) تبين أن (٦) أفـراد جلسوا في بستان يذكـرون الله تعالى، وهذا تآمر كبير على الدولة..!

في بلد عربي عدد نفوسه يتجاوز (٨٥) مليونًا من البشر، لهم (٢٠٠) ألف عسكري مدججين بالسلاح، يتمخترون ليلًا ونهارًا في شوارع العاصمة، تكتشف الحكومة كل ثلاثة أشهر مؤامرة: خمسة شباب أو ستة معهم سلاسل وسلاح أبيض - سكاكين مطبخ - يريدون قلب نظام الحكم، وتمضي الشهور حتى يحال المساكين إلى محكمة فتطلقهم لعدم توافر الأدلة!

الممثل دريد لحام يسجل هذا الاكتشاف العظيم الدوري، ويقول: العالم يبحث عن النفط والمعادن والفحم، ودولنا مشغولة بالبحث عن متآمرين يعملون لقلب نظام الحكم لا غير!

إنه عشق غريب.... وللناس فيما يعشقون مذاهب.

من متطلبات الحياة: الحركة والنظام

الكاتب عبدالعزيز قباني له كتاب جيد عنوانه: (العصبية بنية المجتمع العربي)، ومن جيد ما ذكره[1]: إن الحياة تقوم على الحركة، ولابد للحركة من نظام، وإلا سادت الفوضى، وتعطلت الحياة.

النظام يضبط الحركة، ويقرر ويقنن مسارها، والنظام -في المجتمع- يضبط حركة الذات ثم يقنن (حريتها)، فلا حرية في مجتمع من غير نظام، كما لا حرية خارج محيط المجتمع...

(١) العصبية.... ص (٢٥٢) طبعة أولى ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م، بيروت.

وواجب الدولة تنظيم حركة المجتمع، ولكن لا ينبغي لها أن تصادر الحرية في المجتمع، فإن فعلت فهي تطفئ شعلة الحياة فيه؛ لأنها تحدث (خللًا) في حركة الإرادة المعبرة عن الحياة.

إن تكامل (النظام والحركة) يمثل (المشيئة العامة)، وفي المجتمع فإن تكامل الإرادة والعقل يشكل تعبيرًا عن النوازع الأولية، فإن جرى تكامل الإرادة والعقل والأخلاق، هنا تظهر (نوازع الإيثار).. كل مجتمع يحتاج إلى (معرفة) كي تدعم تنظيمه وللمحافظة على الحقوق، والهدف الأكبر (حماية الإنسان والمحافظة على بقائه)[1].

والنظام قد يكون عامًا لكل أفراد المجتمع أو خاصًا بفئة منه. و(العصبية) نزاعة إلى ما هو خاص، أكثر من العام، كذلك فالحفاظ على النظام الخاص يقتضي نوعًا من (الانغلاق) والانكفاء على الذات، من دون الانفتاح على الغير والاحتكاك به، والتفاعل معه... وقد أغلقت اليابان حدودها أكثر من قرنين ونصف إغلاقًا تامًا، وكذلك فعلت بعض الدول - مثل اليمن الملكية - وكذلك الصين..

هذا الإغلاق والانغلاق لم يعد ممكنًا ولا واردًا مع تطور المواصلات والاتصالات...

---

(١) هذا ما طرحه ابن خلدون في مقدمته.

ويعيب الكاتب على العالم (واقعه اللاإنساني)، ذلك الواقع (المتوحش) الذي ينتهك جوهر الإنسان.

من هنا جاءت ضرورة (الانفتاح) بشرط أن يقوم (نظام قيم جديد إنساني) يتمثل بسلوك صريح - غير منافق - بحيث تكون (الكرامة والحرية والحق) حلقته الرئيسة، وإلا بقي العالم كله (المتقدم والمتخلف) منه (يتخبط بأزمة) وبلا إنسانية مع نفاق ظاهر.. لذا ثمة أزمة تضرب العالم:

١- أزمة العالم المتقدم (أزمة قيم) نابعة من عدم الالتزام (بقيم ثقافته وحضارته) خصوصًا في سلوكه (مع الخارج).. وهو في سلوكه هذا يبدو (كعصبية الطائفة) يعبر عن الجانب السلبي المستلب فيه..

٢- أزمة العالم المتخلف (أزمة قيم) أيضًا، لكنها نابعة من احتكاكه واطلاعه على حياة العالم المتقدم، ويجد فيها (جاذبية) تتجلى في حرية السلوك، وجودة الإنتاج والاستهلاك، وهو يتوق إليها ويريدها، ويقترب عن طريق (المعرفة والثقافة النظرية) لكنه يعجز عن (بلوغها) لافتراضها (شروطًا) غير متوافرة فيه (راهنًا)، والعالم الأول يجهد كي يحول دون هذا (التوافر)..

جماعة (العالم المتقدم) المتمترسة في فئويتها وأنانية مصالحها، والحاملة إياها على الاستغلال تحول دون اعتماد

قيم (العقلانية الإنسانية)، وهي تنزع إلى التمسك بنظام يقوم على (التسلط والاستغلال والظلم وحرمان الشعوب الضعيفة من خبراتها وثرواتها)، كل ذلك عبر استغلال (عصبياتها)، كي تبقى ترسف في قيود (قيمها المتنافية وقيم الإنسانية) مثل: الكرامة والمساواة والديمقراطية والعدل والتنمية...

إن الإنسان لم يبرأ بعد من (العصبية)، بل مازال مشدودًا إليها، إما بقيمه (المتمثلة بسلوكه) الظاهر والباطن - كحال الإنسان المتخلف - وإما بسياسته، التي تعبر عن خلفيته (المترعة بعصبية منزوية كامنة)، وهذا حال الإنسان المتقدم، المتطور.

الإنسان الآخر - المتخلف - يشمل بعصبيته نفسه والآخر. أما الإنسان المتقدم فديمقراطيته لنفسه، وعصبيته ضد الآخر -إنه النفاق-.

إن الواقع الإنساني هذا، وهو يجسد الواقع الدولي (غير العقلاني) ولا الإنساني يجعل الدول المتخلفة في نزاع وصراع مستمر مع الدول المتطورة، الدول المتطلعة للتحرر من التسلط والاستغلال والتبعية والتجزئة -والعالم العربي في صميم هذا الصراع والنزاع-.

وهكذا نفسر تطلع العالم العربي للكرامة والمساواة والديمقراطية والوحدة والتنمية والعدل والأمن الغذائي وسواه،

يريد كل ذلك من أجل أن يخرج من حالة التجزئة والضعف والامتهان، والشعور بالهزيمة التاريخية، ويتطلع للوحدة والقوة والانتصار والكرامة والتقدم و(الندية)، وعلى الأخص (الندية الحضارية)... وهذه الذات العربية مدفوعة بما تقدم يجعلها تنشد كل من تتوسم فيه القدرة البطولية على قيادتها لهذا النصر..

إن من يرتع في التقدم والحرية ليس كمن يرتع في (نقمة التخلف ولعنته) وما فيه من قلة وضعف، وانتهاك (لجوهر الإنسان)، أما المقارنة مع العالم الأول فتزيد من المعاناة والوجع...

إن الذي يتطلع إليه الإنسان العربي هو (الانتصار الوحدوي الحضاري) فهو ضالة الذات العربية، والهاجس الذي يقض مضجعها..

عندما تصير (الأزمة في مجتمع أزمة وجود) فإنها تصير (شاملة متكاملة)، أما النهضة فلا تكون (نهضة أفراد) بل نهضة مجتمع وأمة...

وهذا الانتصار الكبير يتطلب (مجاهدة طويلة ومريرة)..

أما دعاة (المقاطعة) ونجوم الفضائيات فهؤلاء تجار ثرثرة، وليسوا قواد نهضة، ورجال فنادق - خمس نجوم - لا رجال خنادق.